التحقيق في المخطوطات الصوفية، كتاب الفتوحات المكية لمحي الدين ابن عربي أنموذجا

Investigation of Sufi Manuscripts, Book of Meccan Conquests of Mohiuddin Ibn Arabi as a Model

د.بلحمام نجاة

جامعة وهران2 –كلية العلوم الاجتماعية– قسم الفلسفة

belhamame.nadjette@univ-oran2.dz

****

تاريخ الإرسال:2019/11/10 تاريخ القبول: 2019/11/30 تاريخ النشر: 30 /2020/01

الملخص:

تعد المخطوطات الصوفية ثروة فكرية و ثقافية ضخمة في التراث العربي و الإسلامي، و العناية بها هو السبيل الوحيد للإبقاء عليها، و ذلك عن طريق تحقيقها و نشرها، و يعد التحقيق في المخطوطات الصوفية جهدا علميا هاما لا يقل أهمية عن التأليف و وسيلة للحفاظ على ثراثنا. و لأن التصوف لعب دورا هاما في الحضارة العربية الإسلامية و كان له التأثير الكبير في الارتقاء بالإنسان روحا و عقلا، فإن مخطوطاته تحتاج إلى التحقيق سواء على مستوى النسخ أو على مستوى المتن أو النص، للكشف عن الانتحال و التزوير في المخطوطات الصوفية و تبين المؤلفين الأصليين. و يعد كتاب "الفتوحات المكية" من أضخم ما ألف في مجال التصوف و هو موضوع تحقيق من قبل كثير من المحققين من بينهم إبراهيم مدكور و عبد العزيز سلطان و عثمان يحيى... على إعتبار أن كتاب "الفتوحات المكية" لما طاله من ظلم، ليس فقط في تكفير صاحبه وإنما أيضا في نشره دون تصحيح بسبب عدم فهم الكثير للغته المجازية. لذا يكون التحقيق في المخطوطات أسلوب علمي لدى أهل العلم و يطلق عليه "ثقافة المخطوطات".

كلمات مفتاحية:

التحقيق، المخطوط، التصوف، التراث، الفتوحات، ابن عربي، التأليف، الحضارة، الانتحال، المجاز

Abstract:

The Sufi manuscripts are a great intellectual and cultural resource in the Arab and Islamic heritage, and their care is the only way to preserve them through their attainment and dissemination. The investigation of Sufi manuscripts is an important scientific effort, On our heritage. And because Sufism played an important role in the Arab-Islamic civilization and had a great influence on the advancement of man spirit and mind, his manuscripts need to be investigated either at the level of copies or at the level of text or text, to detect plagiarism and forgery [1]in the mystical manuscripts and the original authors . The book "conquests Makki" is one of the largest in the field of Sufism and is the subject of investigation by many investigators, including Ibrahim Madkur and Abdul Aziz Sultan and Osman Yahya ... Considering that the book "conquests Makki" because of the injustice, Not only in the atonement of his neighbor but also in his publication without correction because of the lack of understanding much of his metaphorical language. Thus, the investigation of manuscripts is a scientific method among the scholars and is called "culture

Keywords: investigation, manuscript, Sufism, heritage, conquests, Ibn Arabi, authorship, civilization, plagiarism, metaphor.

1- بلحمام نجاة، أستاذة محاضرة قسم أ، belhamamenadjette@yahoo.com ،
كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، مخبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية و السياسية في الجزائر

المقدمة:

تعد المخطوطات العربية والإسلامية ثروة فكرية وثقافية هامة، وتراث إنساني، لا يمكن بأي حال من الأحوال إغفاله أو إهماله، والحفاظ عليه وبالتالي الاستفادة منه في جميع الفنون الفكرية، متوقف على الاهتمام به وإعادة دراسته وتحقيقه ونشره.

فالمخطوطات هي مصدر تلقي الخلف لمؤلفات والتراث الفكري للسلف، على اعتبار أنها تعكس تاريخ الامة وحضارتها وتميزها علميا، وقد عرف قديما أن المخطوطات كانت لا تباع إلا في الحواضر التي ينتشر فيها العلماء وطلابهم فيما يسمى "بأسواق الوراقين".

وتعدّ المخطوطات الصوفية ثروة فكرية وثقافية ضخمة في التراث العربي والإسلامي، وهي بدورها تتطلب العناية بها، ولا يكون ذلك إلا عن طريق تحقيقها ونشرها، والتحقيق في المخطوطات الصوفية هو جهد علمي هام، لا تقل أهميته عن التأليف ، ولأن التصوف لعب دورا هاما – سواء قبلنا ذلك أو رفضناه – في الحضارة العربية الإسلامية، وكان له التأثير الكبير في الارتقاء بالإنسان روحا وعقلا، فإن مخطوطاته تحتاج الى تحقيق سواء على مستوى المتن أو النص أو على مستوى النسخ، للكشف عن الانتحال و التزوير في هذه المخطوطات، وتبيّن المؤلفين الأصليين، وكتاب "الفتوحات المكية" هو من أضخم ما ألف في مجال التصوف، وهو موضوع تحقيق من قبل كثير من المحققين من بينهم" عبد السلام هارون" و "عثمان يحي" و "إبراهيم مدكور" و"عبد العزيز سلطان"، على اعتبار أن هذا المؤلف الضخم و المهم (دائرة معارف كبرى) في مجال التصوف طاله الكثير من الظلم – ليس فقط في تكفير صاحبه- وإنما أيضا في نشره دون تصحيح بسبب عدم فهم الكثير للغته المجازية.

فما هي إذا الشروط العلمية التي تقتضيها عملية التحقيق في المخطوطات عامة وفي المخطوطات الصوفية خاصة؟ هل تم تحقيق كتاب الفتوحات المكية لمحي الدين ابن عربي تحقيقا علميا؟ ما هي الصعوبات التي واجهت المحققون في تحقيق هذا المؤلف الضخم؟ ما أهمية تحقيق المخطوطات الصوفية في الدائرة المعرفية؟

الطريقة والأدوات:

استدعت هذه الدراسة استخدام المنهج التاريخي من جهة والتحليلي النقدي من جهة أخرى، فتتبع عملية التحقيق ضمن المنظومة المعرفية الصوفية يحتاج منا استعراض جملة المخطوطات الصوفية وطبيعة التعامل معها. أما المنهج التحليلي النقدي فاستخدامه مرتبط بتحليل عملية التحقيق في نطاق شروطها العلمية وقواعدها الموضوعية ومدى استيفاء وارتباط الدراسات الصوفية في تحقيق مخطوطاتها تحقيقا علميا.

قبل النظر في تحقيق كتاب "كتاب الفتوحات المكية" لنحدد بعض المفاهيم، التي هي أولية في عملية التحقيق، أهمها:

المخطوط الذي يعرف على أنه الكتاب المكتوب بالخط لا بالمطبعة وجمعه مخطوطات ويقابله الكتاب المطبوع، إنه "الكتاب الذي كتب باليّد، مصطلح حديث ظهر مع ظهور الكتاب المطبوع MANuscrit " [1]

والمخطوط الأصلي " هو المخطوط الذي نسخه المؤلف بيده (l'autographe) أو أشرف على نسخه وهو النسخة الأصلية(l'original)[2] ولأن كل مخطوط هو عبارة عن نص، فالنص هو الكلمات التي يتألف منها المخطوط، وبكل مخطوط "متن" وهو الجزء الرئيسي من المؤلف(المخطوط) مستقلا عن شروحه وحواشيه، والحواشي أو الهوامش هي الكلمات الخارجة عن نص الكتاب المخطوط وليست منه، الموضوعة في هوامش الكتاب في الجهة العليا أو السفلى أو اليمنى أو اليسرى، وتتضمن تعليقات وشروحات على النص.

إذا المخطوط هو النسخة الأصلية التي كتبها المؤلف بخط يده أو سمح بكتابتها أو ما نسخه الوراقون بعد ذلك في نسخ أخرى منقولة عن الأصل أو عن نسخ أخرى غير الأصل.

---

[1] نبيين، أحمد شوقي، وطوبي مصطفى: معجم مصطلحات المخطوط العربي (قاموس كريكولوجي) المطبعة والوراقة الوطنية، الحي المحمدي، الطبعة الثالثة ، مراكش،2005 ص 320

وهكذا نقول عن كل نسخة منقولة بخط اليد عن أي مخطوطة مثلها حتى لو تم النقل أو النسخ بعد عصر النسخة الأصلية.

ولا يتبين المخطوط الأصلي ومؤلفه الأصلي إلا بمنهج التحقيق، والتحقيق لغة "مأخوذ من حققت الأمر، إذا تيقنته أو جعلته ثابتا لازما، وحقيقة الشيء منتهاه وأصله المشتمل عليه"[1]

والمعنى القريب لما يستخدم حاليا هو التيقن من حقيقة الأمر وثبوته بعد الشك و "يقال حق الأمر حقا: صح وثبت وصدق ويقال أحقه على الحق: غلبه وأثبته عليه"[2]

وفي اصطلاح الفقه الإسلامي، عرف التحقيق بأنه: اثبات المسألة بدليلها"[3]

فالتحقيق إذا هو إحكام الشيء أو التأكد من صحته والبحث فيه، للوصول إلى حقيقته، وهذا ما يصدق عليه قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ" وكلمة "تبيّنوا"[4] في الآية تعني التحقق من صحة الخبر سواء كان مكتوبا أو رواية شفوية. أما التحقق في المخطوط فيكون إثبات صحته من حيث عنوانه واسم مؤلفه ومتنه (مادته العلمية) وتقديمه للنشر، وعمل المحقق هو رد النص إلى أصله الذي اصدره المؤلف وتصحيح ما أصابه من تحريف وتصحيف.

إن النصوص الصوفية أو المخطوطات الصوفية، كثير منها طاله التحريف وكثير منها لم يحقق، وقبل النظر في مشكلات تحقيق هذه النصوص لا بد أن نشير إلى ان التصوف، بدأ بالزهد في أول الأمر، ولكنه تحول تحولا تدريجيا أو مرحليا إلى أن وصل الى ما يعرف بالتصوف، هذا العلم الذي رأى ابن خلدون بأنه علم حادث في الملة، مثل بقية العلوم الإسلامية التي تجلت على صفحات الثقافة الإسلامية كالفقه وعلم الأصول والحديث والتفسير..... وقد كان ظهوره في نهاية القرن الثاني للهجرة.

---

[1] الفيومي، أحمد محمد، قاموس اللغة "كتاب المصباح المنير" نوبليس، الجزء الثاني ص 198

[2] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الجزء الأول، دار المعارف، مصر، 1400هـ، ص 194

[3] الجرجاني، على محمد: التعريفات، عالم الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة،1407هـ، ص 79

[4] القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية 6

وما يلاحظ أن هذا التحول كان مصحوبا بأمرين مهمين هما:

الأمر الأول: يتمثل في كون طائفة من المسلمين حرصوا على أن يكون زيهم منحصرا في زي الصوف، وقد كانوا يتحركون في جماعات، فإذا شاهدهم الناس قالوا: هؤلاء هم الصوفية.

الأمر الثاني: يتمثل في أن هؤلاء الذين أطلق عليهم الصوفية، ظهر من بينهم من يمكن أن نسميهم "علماء" هذا الاتجاه الجديد (التصوف) في ثقافتنا الإسلامية، وكان أهم ما يميزهم "القدرة على تحليل التجربة الروحية" بذكر مقوماتها ومراحلها ومراتبها ومنازلها وحقائقها وبذكر العوائق التي تقف في وجهها وكيفية التغلب عليها. فلم يكتفي الصوفيون بأن يسلكوا سلوكا روحيا أو أن يعلموا تعليما أخلاقيا أو أن يجاهدوا مجاهدة نفسية، بل انتقل العلماء منهم الى تحليل هذه التجربة الروحية، يظهر ذلك مثلا في ما كتبه "أبو سعيد الخراز" الذي عاش في القرن الثالث الهجري وتوفي سنة 277هـ في كتابه "الطريق إلى الله" أو " كتاب الصدق" الذي يتحدث فيه عن المقامات التي يترقى فيها سالك الطريق الى الله عز وجل.

فالطريق عنده يمثل منازل يقطعها السالك منزلة منزلة، وهو لا ينتقل من احداها إلّ الأخرى الا بعد أن تتمكن الأولى في نفسه فتكون له خلقا راسخا وصفة مستقرة، ثم ترد على نفسه واردات من الدرجة التي فوقها، تصل به هذه الدرجات، مقاما مقاما ومنزلة منزلة الى مراتب الولاية، والقرب والكشف، قال أبو بكر الكتاني وأبو الحسن الرملي رحمهما الله تعالى: "سألنا أبا سعيد الخراز، فقلنا: أخبرنا عن أوائل الطريق إلى الله تعالى؟ فقال: (التوبة، وذكر شرائطها، ثم ينقل من مقام التوبة إلى مقام الخوف، ومن مقام الخوف إلى مقام الرجاء، ومن مقام الرجاء إلى مقام الصالحين، ومن مقام الصالحين إلى مقام المريدين، ومن مقام المريدين إلى مقام المطيعين، ومن مقام المطيعين إلى مقام المحبين، ومن مقام المحبين إلى مقام المشتاقين ، ومن مقام المشتاقين إلى مقام الأولياء، ومن مقام الأولياء إلى مقام المقربين وذكروا لكل مقام عشر شرائط، إذا عاناها و أحكمها حلت القلوب هذه المحلة أدمنت النضرة في النعمة وفكرت في الأيادي و الإحسان، فانفردت النفوس بالذكر، وجالت الأرواح في

ملكوت عزه بخالص العلم به، واردة على حياض المعرفة، إليه صادرة، ولبابه قارعة وإليه في محبته ناظرة"[1] وقد سئل الجنيد عن التوبة فقال: " هو أن تنسى ذنبك" قال أبو نصر السراج: " أشار الجنيد إلى توبة المحققين، فإنهم لا يذكرون ذنوبهم بما غلب على قلوبهم من عظمة الله تعالى ودوام ذكره"[1]

وقال الجنيد أيضا:" التوبة على ثلاثة معان: أولها الندم، وثانيها العزم على ترك المعاودة إلى ما نهى الله عنه، وثالثها السعي في أداء المظالم."[2]

إن تحليل التجربة بمثل هذه المفاهيم التي هي أحوال ومقامات لم يكن موجودا في حالة الزهد الأولى، التي كان الناس يقومون فيها بالزهادة سلوكا وأخلاقا، لكن التحليل والتدرج الذي يرتقي بحسب نظرة لأوائل الطريق وخواتيمه، انفرد به الذين سلكوا طريق التصوف.

كذا نجد في الحديث عن مقام "المحبة" محبة الله عز وجل، يحبهم ويحبونه "وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ"[3]

و " ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه"[4]، إن الحديث عن مقام المحبة عند الصوفية ليس حديثا عن مجرد شعور عاطفي أو انفعال أو سلوك، بل هو تحليل لهذا المقام، هذا التحليل يقوم على ذكر لماذا ظهرت، وكيف ظهرت وما آثارها ونتائجها في سلوك الفرد الذي تربطه بالله علاقة المحبة، وقد بيّن المحاسبي أن الأصل في محبة العباد لربهم هو محبة الله تعالى لهم، إذا كان هو المبتدأ بها له، ولذلك عرفهم بنفسه ودلهم على طاعته وتجبب إليهم على غناه عنهم، فجعل المحبة له ودائع في قلوب المحبين، ثم ألبسهم النور الساطع في ألفاظهم من شدّة نور محبته لهم، ثم حببهم إلى ملائكته ونشر لهم الذكر الرفيع عند خلقه، وقبل أن يخلقهم مدحهم قبل أن يمدحوه،

---

[1] الاصبهاني، أبو نعيم: حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ج10، دار الكتاب العربي، بيروت ص ص 248-249

[2] السراج أبو نصر: اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، مكتبة الثقافة الدينية، (د، ط)، القاهرة 1423هـ / 2002م ص 68

[3] القشيري، أبو القاسم: الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق معروف مصطفى زريق، المكتبة العصرية (د، ط) بيروت (د، ت) ص 95

[4] القران الكريم، سورة البقرة، الآية 165

[5] صحيح البخاري، حديث رقم 6502

شكرهم لعلمه السابق فيهم، ثم أخرجهم إلى خليقته، وقد استأثر بقلوبهم التي أودعها خزائن القلوب وخزائن الغيوب، فهي معلقة بمواصلة المحبوب، ولا يكون هذا لهم إلّا بدوام الذكر لله وشدة الأنس به، وقطع كل شاغل يشغلهم عنه وتذكر النعّم و الأيادي التي يتفضل بها عليهم.

بهذا المعنى، وجدنا التصوف يظهر في الثقافة الإسلامية، ويظهر معه علماء يملكون القدرة على التحليل والوصف والتربية والتحلق والتعلق والتحقق بأمثال هذه المقامات التي يتدرج فيها الصوفية للوصول إلى الكشف والشهود.

إن التحليل الصوفي مرّده التجربة الصوفية التي يخوضها أصحابها، فيصفون ما عانوه بأنفسهم، وما تدرجوا فيه بمراحل سلوكهم وقربهم وأنسهم وعلاقتهم بالله عز وجل، بحيث تزول العوائق وتنكشف الحقائق.

إذا هناك أصالة في التجربة الشخصية، ومعرفة خاصة وتعبير عن الذات وأحوالها، انهم يملكون قدرة على الوصف والتسجيل في ما يقولونه من الأقوال، وفي ما يكتبونه من الرسائل التي تحولت في ما بعد إلى كتب كبرى تتميز بالتفرد والسعة، وشخصانية تدل على نوازع القلوب في الوصف لوجدانها ومشاعرها في علاقتها بالله تعالى. لأن المعرفة في التصوف تتصل بالتجربة التي يخوضها الصوفي ومعاناته. هناك خاصية أخرى ميّزت المتصوفة تكمن في كونهم لم يكتفوا بوصف الطريق بما فيه من الأخلاق والتهذيب والتدرج والترقي، وانما لمسوا العلوم الأخرى في الثقافة الإسلامية، وصبغوها بأسلوبهم الخاص، مثلا عند يكتب الصوفي في الفقه، يتحول الى فقيه صوفي، ليس مجرد فقيه يكتفي بذكر الأحكام، ولكنه يتحدث عن أسرار العبادات وأخلاق أصحابها في علاقتهم بالله تعالى.

إن الطابع الذي يميز المتصوفة نجده ممزوجا بتجربتهم وبمجاهاداتهم وبمعاناتهم، فمثلا عندما يتحدث علماء الكلام عن مسألة اثبات وجود الله عز وجل، فإن هذه المسألة لا تشكل مشكلة عند الصوفية، إذ نجدهم يتحدثون عن علاقتهم بهذا الاله، ما الذي ينبغي أن يكون في قلوبهم نحوه؟ من مراقبة وحياء وتوكل وثقة ويقين واقبال وترق في السلوك الى الله.

فما يقدمه المتصوف من تحليل ووصف لتجاربهم نجده ممزوج بآدابهم وبأحوالهم، فهم يقولون: نحن نعنى بمكارم الأخلاق ومعال الأحوال وفضائل الأعمال

والمقامات العالية في الدين، والبحث عن حقائق التوبة والورع، وطبقات المتوكلين، ومقامات الراضين ودرجات الصابرين.

كما تتنوع تجاربهم لتتحدث عن باب الخشية والخضوع والمحبة والخوف والرجاء والشوق والمكاشفة والمشاهدة والإنابة والطمأنينة.

وتحليل هذه الأحوال والمقامات لا نجده إلا عند العلماء من هذه الطائفة (أي المتصوفة)، ويجب أن نفرق بين العلماء من الصوفية وبين ما يحدث في الطرق الصوفية خاصة. عندما انحدر التصوف إلى أن يكون فلكلورا شعبيا ،إذا هو معرفة وهناك تحليل ووصف لهذه المعرفة.

أما فيما يتعلق بالتحقيق والنشر، فلم يكن المسلمون في بداية عهدهم يكتبون علومهم في كتب، إذ كان الأمر يعتمد على الحفظ والرواية والمشافهة لكن استشهاد عدد كبير من حفظة القرآن في حروب الردة، دفع بأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب الى جمع القران وتدوينه، وهذا ما ينطبق على علم الحديث، والفقه وعلم التفسير. فكل العلوم عندنا كانت تتحدث عن منهج الرواية وليس عن منهج التأليف. ولكن لم يكن للعلم أن يتطور اعتمادا على الرواية الشفهية وحدها، إذ كان لا بد أن ينتقل الى مرحلة التدوين.

ومع ذلك، فإن هذه القاعدة العامة التي شملت مختلف أصناف العلوم، نجدها تختلف الى حد ما عند الصوفية الذين كانوا يرون في الحديث عن مجاهداتهم وعن عطاء الله تعالى لهم شيئا من الحديث عن النفس والتزين للخلق والدخول في مخاوف الرياء. الذي يقول عنه الحسن البصري: "لا يزال العبد بخير ما علم ما الذي يفسد عليه عمله، فلا غنى للعبد عن معرفة ما أمرنا باتقائه من الريّاء، إذ وصف بالخفاء، ففي الحديث: (أنه أخفى من دبيب النمل). فما خفي لم يعرف إلّا بشدة التفقد ونفاد البصيرة بمعرفته له حين يعرض، وإلا لم ينفع التفقد لما لا يعرف، فبالخوف والحذر يتفقد العبد الرياء، وبمعرفته يبصره حين يعرض، فلا غنى بك عن معرفة الرياء"[1]

[1] الحارث المحاسبي: كتاب الرعاية لحقوق الله، ص 160

يرى الصوفية أنه عندما يكتب الانسان عن تفضل الله عز وجل بشيء لعبده، معناه أن يتحدث عن النفس ويتزيّن للخلق، وهذا أمر مذموم، لأن الرياء جاء في الأحاديث أنه نوع من الشرك، " الشرك الأصغر" الذي يحبط الاعمال ويجعل صاحبه بعيدا عن الإخلاص، الذي هو الركن الأساسي في العلاقة بالله عز وجل.

لكن ضخامة المعرفة الصوفية وعدم القدرة على متابعة العلماء الكبار في سعة علومهم، جعل الكتابة والتدوين أمران لازمان

كان يتحفظ على هذا الأمر بعض الصوفية، وكان يقول "كتبي أصحابي". لكن الدخول إلى مجال الكتابة الصوفية سينقلنا الى النشر في العصر الحديث.

ألفت الكتب في القرن الثالث الهجري، اذ وجدت كتب كاملة عند المحاسبي، وسهل التستري، وعند الجنيد وعند عمر بن عثمان المكي والحلاج والحكيم الترمذي، ثم بعد ذلك في القرن الرابع الهجري، الذي يعتبر قرن ازدهار وعطاء في سائر العلوم الإسلامية، أين نجد أبي طالب المكي وأبي بكر الكلاباذي والقشيري والهجويري.....

إذا مؤلفات كبرى يعرفها مجال التصوف، وأكثريتها تتسم بالموسوعية

عندما نأتي الى النشر والتحقيق في مجال التصوف، نجد بأن هذا الأخير بدأ بالنشر، وليس التحقيق بشرائطه العلمية من حيث جمع النسخ ودراستها وبيان مزاياها وعيوبها، ثم ترتيبها.

إن التحقيق كأي علم له تقاليد وشروط، اذا تحققت يكون العمل محققا و إذا لم تتحقق، فإنه يسمى نشرا، نشرا فقط لمجرد النص، وهذا ما عرفه المستشرقون في أول الأمر، بحيث أنهم ينشرون النص (في علم الكلام و الفلسفة و التصوف) مجردا من أي تعليق، و الإجادة عندهم تكمن في نقل النص مما كان عليه إلى ان يقدم للناس في صورة مطبوعة، وقد يطبق بعظهم مسألة المقابلة بين النسخ، اذا كان هناك نسخ، وتكون هوامش التحقيق مملوءة بفروق النسخ على الطريقة التي عرف بها المستشرقون، أي كان القصد أولا النشر وليس التحقيق، لأن هذا الأخير يرتبط بشروط أهمها:

- جمع المخطوطات وفحصها
- الموازنة بين المخطوطات

- أجعل نصا أصلا في الأول وأتحكم في المقابلة الى النسخ بعضها ببعض للوصول الى أقرب نص يمكن أن يكون المؤلف الأصلي قد كتبه.

هذه القواعد نجدها في مؤلفين هامين، أولها لعبد السلام هارون وكتابه: " تحقيق النصوص ونشرها" وثانيها لصلاح الدين المنجد وكتابه: "قواعد تحقيق المخطوطات".

إن قيمة المخطوطات تتفاوت من كونها نسخة المؤلف أو نسخة تلميذه أو نسخة قرأت عليه أو نسخة أخذت من نسخات أقدم قرأها المؤلف، الى آخر هذه المزايا التي تتحقق لمخطوط ما، تجعل له مقام الصدارة او ترجعه الى مقام متأخر.

ثم تطور النشر، فأصبح هذا النشر للنص مقرونا بأعمال إضافية سماها شيوخ المحققين وعلى رأسهم "عبد السلام هارون" "المكملات الحديثة" مثلا إذا جاءت آية قرآنية، يقول إن هذه الآية من سورة كذا، اذا جاء بيت من الشعر، يقول هذا للشاعر كذا، إذا لديوانه في المجموعة الشعرية كذا...، إذا جاء علم من الأعلام يترجم له، إذا جاء مصطلح فني له معان متعددة أو هو غامض أو اصطلاحي دقيق لا يستطيع القارئ المعاصر أن يفهم مضمونه، لأن الكتب القديمة كان يكتبها العلماء بعضهم لبعض، لغياب الطباعة، فكان لا يبحث عن المخطوط إلا من كان من أهل العلم، فالذي كان يتداول الكتب هم العلماء، فعندما يأتيه النص فهو يعلمه، ولا يحتاج الى شرح له في الهوامش ولا لمن يعلق عليه، لكن ونحن الان مقطوعو الصلة في أحيان كثيرة بتراثنا أو بفروع كثيرة من تراثنا، فإننا لا نستطيع أن نتتبع النص إلا عن طريق من يساعدنا على فهم هذا النص، أي نحتاج إلى تحقيق الكتب.

إذا إن ما ظهر من كتب، كان يغلب عليها النشر و ليس التحقيق، وفي مجال التصوف، فإن ما ظهر مما يتعلق بالقرون المتأخرة لا يتجاوز مقدارا ضئيلا، وأن ما نشر يغلب عليه أن يكون طبعا لا تحقيقا، حتى أعمال الأساطين من علماء التصوف أمثال ابن عربي، وأن أكثر ما ظهر من أعمال مطبوعة في مجال التصوف، يحتاج إلى إعادة تحقيق تحقيقا نقديا بالرجوع الى المخطوطات الاصلية، لعدم توفر القواعد العلمية للتحقيق وتطبيقها على النصوص الصوفية، من هذه القواعد: أن يكون التحقيق على المخطوطات، وأن توثق نسبة الكتاب الى صاحبه وأن ندقق عنوانه و أن تفحصه من الداخل فحصا نقديا علميا يبيّن أن هذا الكتاب هو للشخص الذي سينشر الكتاب باسمه وليس منسوبا اليه نسبة خاطئة أو نتيجة لشهرة غير محققة وأن يلحق بما سماه "عبد السلام هارون" بالمقدمات والتعليقات العلمية و بالفهارس.

وأي كتاب بلا فهارس يعدّ كتابا مصمتا، خاصة إذا كان من الموسوعات الكبرى، وإذا طبقنا هذه القواعد على ما ظهر من مطبوعات في القرن الأخير، أي منذ بداية اهتمام المستشرفين بنشر التراث في أوائل القرن العشرون ميلادي، سنجد أن النصوص الموجودة هي نشر أكثر منها تحقيقا. ومن بين الملاحظات التي نجدها في هذا النشر:

- أن بعض ما نشر لا يعتمد على مخطوطات أصلا

- قد يعتمد البعض على نسخة واحدة، وأن بهذه النسخة نقائص كثيرة إذا ما اعتمدت قواعد التحقيق العلمية، فيكون النص غير موثق، به خلط، ولا توجد نسخ أخرى.

-كثير منها يخلو من المقدمات العلمية ومن التعليقات العلمية. كما قد يعاد التحقيق على نسخة واحدة، مثلا نسخة "تفسير التستري" نشرت أول مرة على نسخة كتبت سنة 1140هـ، ثم طبع الكتاب سنة 1329هـ، وأعيد نشره سنة 1425هـ، من غير أي مخطوطات.

إن النسخة التي اعتمدها الناشر (نسخة 1140هـ) بينها وبين المؤلف ما يزيد عن 900سنة، لم يفسر الناشر أو المحقق كيف يظل كتاب 900 سنة من غير أن يكون له أي نسخة.

كما نشر للجنيد على سبيل المثال، ونشر مرتين بعد ذلك في مصر، وقد تبين وجود ملاحظات يصل بعضها إلى أن أجزاء مما نسب إلى الجنيد لا يمكن أن يكون له.

وقد عثر على مخطوطة بدار الكتب المصرية بعنوان " علم القلوب" نشرت على أنها لأبي طالب المكي صاحب كتاب " قوت القلوب"، وهذه المخطوطة لا يمكن أن تكون حسب المحققين لأبي طالب المكي لأسباب عديدة منها:

- لأن الكتاب فيه احالات تدل على أن الكتابين (علم القلوب وقوت القلوب) ليسا لشخص واحد.

- أن في الكتاب نصوصا لجماعة من الذين تأخرت وفاتهم عن "المكي" بعده بخمسين سنة.

- أما فيما يتصل بالنقد الداخلي للأسلوب، فيظهر جليا أن الأسلوب ليس لشخص واحد، هذا سجع متكلف وهذا أسلوب رائق (أسلوب المكي)، هذا نفس عال في العلم والتأليف، وهذا أسلوب ظهر في عصر التخلف، ثم هناك تناقض بين ما ذكر في الكتاب المحقق النسبة وهذا الكتاب الذي ليس محقق النسبة.

هذا لا يعني عدم وجود نماذج للتحقيق العلمي الموضوعي، ويمكن الإشارة إلى ثلاثة نماذج من الكتب المحققة تحقيقا علميا في مجال التصوف:

- النموذج الأول: طبعة الأستاذ نورالدين شريبة "لطبقات الصوفية" لأبي عبد الرحمان السلمي المتوفي سنة 412هـ، وهي تمثل نموذجا عاليا للتحقيق بالنظر إلى من عاصره من المحققين.

- النموذج الثاني: هو كتاب "ختم الأولياء" للحكيم الترمذي الذي قدمه الدكتور عثمان يحي، إنه محقق بقواعد المحققين وأهمها:

فضلا عن توثيق النص ونسبة الكتاب الى صاحبه، وجود التعليقات العلمية والفهارس الفنية التي تفتح أفق البحث، بالإضافة الى الجهد الذي بذله عثمان يحي في قراءة الكتاب وضبطه.

النموذج الثالث: كتاب "عطف الألف المألوف على اللام المعطوف"[1]

لأبي الحسن علي بن محمد الديلمي، وقد حققه الأستاذان حسن الشافعي وجوزيف نورمان تبير"، وقدما مقدمة علمية كبرى، تتضمن التعريف بمؤلف الكتاب

و التعريف بالكتاب وموضوعاته و توثيق أفكاره ومضمونه بما يصله بالحركة الثقافية الموجودة وبآثاره التي ظهرت في ما بعد عند الصوفية خاصة منهم الفرس، ونجد المحققان يتتبعان المؤلف في مؤلفاته العربية و الفارسية، ويظهران نماذج لهذه التأثرات التي ظهرت في هذا الكتاب، كأن يظهران تأثر الديلمي بشيخه "ابن خفيف" الذي توفي عام (371هـ/982م) و الذي التقى به سنة 352هـ، ومكث معه عشرين سنة يتلقى منه التربية الروحية.

وإذا انتقلنا الى الحديث عن أحد أهم الكتب الصوفية، وهو كتاب "الفتوحات المكية" لابن عربي، وهذا الكتاب شديد الأهمية للتصوف مع العلم أن مؤلفات ابن عربي كثيرة جدا منها: فصوص الحكم، وترجمان الأشواق وكتاب اليقين وكتاب شجرة الكون وكتاب الإعلام بإشارات أهل الإلهام وكتاب تفسير ابن عربي.

[1] هذا كتاب لأبي الحسن الديلمي من رجال القرن الرابع الهجري، فهو نص قديم، من أكثر من ألف عام، يتناول مسألة الحب الإلهي والحب بوجه عام، فيقارب مقاربة بارعة ويحلل بدقة ظاهرة الحب.

ولكننا نركز على "الفتوحات المكية" وهو من أضخم الكتب التي ظهرت في التصوف، مكون من 37 سفر و560 بابا، وصف بأنه من النصوص الصوفية الموغلة في التعمق و أن لغته رمزية وبها إشارات إلهية، إنه دائرة معارف كبرى، نجد فيه حديث عن تجربة ابن عربي، به منهج صعب ومعقد لابن عربي يجعل كتابه غير مقروء، إلا بمرشد يضع القارئ يقف على مواطن المعارف الموجودة في هذا الكتاب الذي يلم بحديث في الفقه و الأصول و الفلسفة و الأخلاق و التربية، كما نجد فيه حكايات وأسرار ومقامات ومعارف وأخبار ومسامرات وفلك وطبيعة و طب و نحو و لغة....

طبع هذا الكتاب طبعات غير محققة في نحو ثلاثة ألاف صفحة (3000) من القطع الكبير الذي يوجد فيه في الصفحة الواحدة أربعون سطرا (40 سطرا) في كل سطر عشرون كلمة (20 كلمة) على الأقل.

وقد تم التفكير في تحقيق هذا الكتاب منذ سنة 1964م في مصر -هذا الكتاب الذي يحوي أكثر من 4000 صفحة- وظهرت طبعات اقتربت اقترابا يسيرا من التحقيق وأكثرها لم يكن له صلة بالتحقيق، فلا يحدد مصدر النص، ولا يذكر في مقدمة الكتاب النسخة التي اعتمدها المحقق (هل وجدها في تركيا أو في مصر أو في المغرب.....) إضافة الى ذلك ما اتسم به الكتاب من غموض في بعض الإشارات المجازية التي لا يدرك مكنوناتها إلا الراسخون في عالم التصوف ولغته التي لا تكتفي بالتلميح عن التصريح وبالإيحاء عن المباشرة، وربما ساعدت الظروف المعاصرة بما جد عليها من صراعات فكرية ومذهبية في اتساع دائرة الظلم على هذا الكتاب وعلى صاحبه الذي قضى منذ ثمانية قرون.

غير أن أهم إصدار لهذا الكتاب، ما قدمه الدكتور عثمان يحي، باعتباره محقق متين من الناحية العلمية، لكن من جهة أخرى هذا الكتاب لا يستطيع أن ينهض به شخص واحد، مثلا نجد في مصر، الموسوعات الكبرى مثل" المغني" للقاضي عبد الجبار و"الشفاء" لابن سينا، عهد بها الى نحو عشرين من الأساتذة، يتكفل كل واحد منهم بجزء من الكتاب ليظهر وينشر في فترة وجيزة.

إن تحقيق عثمان يحي لكتاب " الفتوحات المكية"، قام على اصدار 14 سفرا من 37 سفر، الذي صدر يقارب نحو الثلث فقط، هذا الإصدار يظهر فيه تحقيق وتقريب للكتاب الى القارئ من خلال وجود الفهارس الفنية الكبيرة التي كان يكتب فيها

في كل جزء نحو 80 صفحة من الفهارس الاصطلاحية التي تجعل الكتاب كأنه قرأ كله، بالإضافة الى ذلك فإن هذا التحقيق قرب الكتاب الى القارئ وفتح له المغاليق ووضع يده على أهم الموضوعات، مما ساهم في اقتراب طلاب الدراسات العليا من ابن عربي بعد أن كانوا يعتمدون على النصوص المقتبسة و أحيانا غير المحققة تحقيقا علميا.

ومع ذلك كان لابد أن ينظر في تحقيق هذا الكتاب مرة ثانية سواءا كل الكتاب أو ما تبقى منه ولم يحققه عثمان يحي، أي إما أن يكون من 15 سفر إلى 37 سفر وإما أن يبدأ التحقيق من أول الكتاب.

ومع ذلك تظهر بعض الملاحظات على نسخة عثمان يحي أهمها:

- أنه لم يكمل الكتاب (لوفاته)

- وجود مشكلات تتعلق بالسفر التاسع، وهو مفقود من نسخة ابن عربي التي كتبها بيده، أي العثور على نسخة كتبها ابن عربي لهذا الكتاب كله أي لـ 37 سفر كتبها بيده، ولكنه كتبها في نحو ثلاثون سنة (30 سنة) وكان قد كتب الكتاب مرتين.

- مرة في صورة مصغرة كرسالة تسمى (الفتح المكي) والمرة الثانية في صورة مفصلة تحتوي على أكثر من 4000 صفحة والتي كان الدكتور عثمان يحي يعمل عليها، لكن الجزء التاسع كان مفقودا.

- ويمكن أيضا ابراز بعض الملاحظات العلمية على عمل يحي عثمان والتي تجعل طبعته تحوي نقصا في بعض النصوص.

- يلاحظ مخالفة للنسخة الأصلية التي كتبها ابن عربي والتي عمل عليها عثمان يحي.

- يلاحظ بعض التصرف في النص اعتمادا على فهم معين للسياق العام كالتصرف في بعض الكلمات الذي أدى الى عدم استقامة النص أحيانا.

ومع ذلك تعتبر هذه النسخة (نسخة عثمان يحي) أصح نسخة من نسخ الفتوحات المكية باعتبار كونها مقابلة على مخطوطة قونية التي هي بخط ابن عربي الحاتمي، ولكنها غير مكتملة لأن المحقق عثمان يحي توفي (رحمه الله) قبل اتمامها فبقيت في 14 مجلدا، وكان من المتوقع خروجها في 37 مجلدا لأنها مقسمة تبعا لتقسيم مخطوطه قونية الأصلية.

كما توجد نسخة كاملة من كتاب الفتوحات المكية وتعتبر أيضا من أصح نسخة لكونها مقابلة على نسخة قوبلت على نسخة قونية السابقة الذكر، وطبعت بالمطبعة الميمنية بمصر التابعة لدار الكتب العربية الكبرى عام 1329هـ.

النتائج ومناقشتها:

تعرضت عملية التحقيق خاصة بما يتصل والمخطوطات الصوفية إلى الكثير من التجاوزات، تمثلت خاصة في تصرف الكثير من المحققين في النص، والتصرف قد يكون بزيادة أو نقص أو تحريف، فالكلام إذا كان منقولا بزيادة ينبه على هذا في الحاشية، وأن النص الأصلي هو كذا، وإن كان باختصار ونقص غير مخل، يشار في الحاشية إلى كون النقل بتصرف، وإذا كانت بتحريف الكلام أو نقل الكلام بغير لفظه، ما يترتب عليه فهما غير فهم المنقول عنه أو من كتبه، فلا بد من تدخل المحقق بنقل الكلام الأصلي ومناقشة القضية، لا الاكتفاء بمجرد الإشارة إلى كونه بمعناه او الإشارة إلى وجود تحريف فيه.

هذه القواعد الصارمة هي التي جعلت تحقيق بعض المخطوطات غير موضوعي سواء من حيث نسبة المخطوط إإلى صاحبه أو من حيث طبيعة متنه أو نصه، هذا الأمر تبين من خلال ما تقدم أنه إنطبق على نص "الفتوحات المكية" لإبن عربي.

وعليه يلاحظ تراجع عملية التحقيق للمخطوطات القديمة التي تتصل بالتراث، لغياب محققين مستوفين لشروط التحقيق. وأيضا لدينا بعض من يمارسون التحقيق ولا يملكون أدواته، فكثيرا ما تصدر كتب تحمل الكثير من الأغاليط سواء على مستوى متن أو نص المخطوط أو على مستوى نسبة المخطوط لصاحبه، كما أن التحقيق لا سير ضمن خطة محددة بل كثيرا ما يكون فرديه، فلا يوجد اهتمام رسمي واضح بتاريخ العلوم والمعارف.

لقد أشار الدكتور "خير الله سعد" (الباحث العراقي) أن التحقيق عملية إعادة ولادة لكتاب أو مخطوط ينحاز له المحقق بشكل معرفي، فإذا كان المحقق أدبيا فإنه يتجه للمخطوطات الأدبية وإذا كان مؤرخا فإنه يتوجه أيضا للمخطوطات التاريخية وهكذا... بينما يتعين حسب الدكتور "خير الله" أن يكون المحقق موسوعيا، ملما بكل العلوم المرتبطة بالتحقيق، فالتراث الإسلامي مثلا هو مزيج من كتب الدين واللغة والأدب والفلسفة والتاريخ والفقه وسيرة الأعلام فالإلمام الموسوعي والمعرفي بحسب الدكتور "خير الله" شرط أساسي وقاعدة علمية من قواعد عملية التحقيق.

كما أن عملية التحقيق عرفت تراجعا الذي يرتبط بالتراجع الثقافي العام، الذي جعل الجهات الرسمية تحتكر فضاء الشأن الثقافي وتعّين أشخاصا (هم من أهل الثقة على حسب تسمية الدكتور عبد المنعم تليمة لهم) وتستبعد ذوي الخبرة في هذا المجال، وكثيرا ما يكون أهل الثقة هؤلاء لا يمتلكون الأدوات العلمية الأساسية في عملية التحقيق.

الخاتمة:

وعليه نخلص إلى أن تحقيق النصوص والمخطوطات -منها المخطوطات الصوفية- أمانة علمية وأخلاقية، وليس تحقيق المتن تحسينا أو تصحيحا وإنما هو أمانة الأداء التي تقتضيها أمانة التاريخ، فالتحقيق أجل من التأليف على اعتبار أنه يتحرى الدقة والموضوعية في إخراج الكتاب أو المخطوط.

إن تحقيق التراث والحفاظ عليه ليس ترفا فكريا ووجود محققون جدد يسلكون مشوار المحققين الكبار شرط أساس للحفاظ على التراث وتفعيله.